٢ ـ دعابة الجـــاحظ

بقلم محمد فهمى عبد اللطيف

ولقد رأيت فى الناس من يحسب أن التنادر من الشىء الهين ، الذى يستطيعه كل إنسان ، ويقدر عليه كل شخص ؛ وهـذا حسبان خطأ ، فأن التنادر فنله ثقافة ودراية كسائر الفنون ، ولا بد فى حذقه من استعداد موهوب ، وملكات فطرية ، يتصل بعضها بالقلب ، وبعضها بالعقل ، وقد يناقض بعضها بعضا ، وقدلاتجتمع كلها لشخص واحد ، ومن ثم اختلف حظ الناس فى إجادة هذا الفن ، كاختلافهم فى إجادة الشعر والكتابة والرسم وغيرها ، ففيهم الذى يبلغ فى ذلك مرتبة العبقرية ، ومنهم من يقف عند حد النبوغ ، وفيهم من هودون ذلك وأقل ، ثم تتدلى وتتدلى حتى تقع على البليد الأصم الذى لايفهم ما يقول ، ولا يفقه ما يقال ، فهو أخو الجادات فى فقدان الشعور ، وبلادة الأحساس ، وإن كان قد تميز بالنطق ، وبالنطق فحسب !

ومن أجل أن نقيم الأود فى هذا الخطأ على وجه أوضح ، ونعطى الموضوع بعض ما يستحقه من الشرح ، نقول : بأن التنادر لا يقف فى اتجاهاته ومراميه عند حد العبث والضحك ، ولكنه فى الواقع يقصد إلى ما هو أهم وأجل ، ويرمى إلى أغراض متعددة ، كل غرض منها يعتمد على ملكات ولا بد له من استعداد خاص ، فمن ذلك السخر وهو يقوم على الذكاء وقوة الأدراك ، وحسن المفارقات ؛ والدعابة وهى تعتمد على انبساط النفس ، ومرح الطبيعة ، وخفة الروح ؛ ثم الهزل وإنما يكون عن استهانة بتكاليف الحياة وعظائم الأمور ، وتفريط فى الواجب ؛ وقد يتدفع الأنسان إلى الهزل والعبث بدافع العطف والتبسط ، كما تضحك من طفلك الصغير ، ومن أصحاب النقص وذوى العاهات . وقليل فى الناس من تجتمع له كل هذه الجهات بملكاتها كما كان الجاحظ ، وكثير من نجده يجيد الضرب والضربين ، فهو فى أحدها يقطف ، وفى بعضها يقف

على أنه لابد لحذق هذا الفن بعد كل هـذه المواهب والملكات من ثقافة بضروبه ، وعلم بمسالكه وانتهاجه ، حتى يمكن للتنادر أن يقع بالنادرة من قلوب السامعين موقعا يهز المشاعر ، ويشفى نجى البلابل ، وقد تكلم الجاحظ فى تبيان النهج الذى يكون به أداء النادرة وحظها من القبول والاستملاح والاستطابة فقال : « والنادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً ، وإنما الكرب الذى يخيم على القلوب ويأخذ بالأنفاس ، النادرة الفاترة التى لا هى حارة ولا هى باردة ، وكذلك الشعر الوسط ، والغناء الوسط ، وإنما الشأن فى الحار جداً والبارد جداً . . .

ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب ، فأياك وأن تحكيها إلا مع اعرابها ومخارج ألفاظها ، فأن أنت غيرتها بأن تلحن فى إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فأياك وأن تستعمل فيها الأعراب أو أن تتخير لها لفظاً حسنا ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فان ذلك يفسد الأمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذى أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها ، واستملاحهم لها ..(١) ،

وثمت ناحية لا أحب أن تغرب عن البال ، وهى أن الانسان وإن اجتمعت له ملكات التنادر ، وتمت له مواهب الدعابة ، وكان على علم بشرائط ذلك وضروبه ، فأنه مع هذا كله لايستطيع أن يكون له فى هذا الفن الا اذا استوفى شرائط أخرى فى هيئته ومخبره وإشاراته ، وما هذه الشرائط فى الواقع الا أداة هذا الفن وآلته ، فكما أنهم ارتضوا للخطيب نمطا خاصا فى موقفه من اعتجار العمامة ، واصابة الأشارة ، وجهارة الصوت ، وجودة الايقاع ؛ وكما أنهم اشترطوا للمنادم بزة معلومة من الزى ، وحسن الحديث ولطف المدخل ، فكذلك رأوا من شرط المسامر والمنادر أن يكون خفيف الاشارة لطيف العبارة ، ظريفا رشيقا ، لبقا رفيقا ، غير فدم ولا ثقيل ، ولا عنيف ولا جهول ، قد لبس لكل حالة لباسها ، وركب لكل آلة أفراسها فطبق المفاصل ، وأصاب الشواكل (٢) ، ولقد تم للجاحظ كل هذا من مواهب الفن وملكاته ، فبلغ فيه مبلغ العبقرى النادر ، وكان له فى كل ضرب من ضروبه واتجاهاته ، يتهكم تهكما مرأ لاذعا ، ويداعب مداعبة حلوة سائغة ، ويهزل هزلا هو مراح الأرواح ، وأنس القلوب . وإنك لتجده فى سائر كتاباته وأحاديثه يجمل القول بالنادرة ، ويخلط الجد بالدعابة ، فيجعله حبيبا إلى النفوس ، سهلا فى التناول ، وما أعرف للجاحظ ضريبا فى تلك الناحية غير الكاتب الانجليزى المأجن صاحب « الأفكار البليدة » (٣) فقد كان ذلك الكاتب خفيف الروح ، فوهم الفكر ، له آراء صائبة ، ولكنه كان يسوقها الى القارىء مساق الدعابة والتفكه ، وكان مشغوفا بنقض ما تواضع عليه الناس من الفضائل والأخلاق ، فيحسب الغرور فضيلة ، والقناعة بلادة ، ويرى أن أهل الخير والطيبة على باطل ، وإنه فى ذلك لكالجاحظ إذ كان يكتب فى الأمور المتناقضة ، والحالات المتضاربة ، فيحتج لفضل السودان على البيضان ، ويفتخر للرماد على المسك ، وإن الشبه ليشتد بين الرجلين إذ يتحدث كل منهما عما يتصل بنفسه ، ويمسه فى شخصه ، ولقد وقفت على فصل لذلك الكاتب يتكلم فيه عن الذاكرة ، ويتنادر

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١١١ ط السندوبى

(٢) جمع الجواهر ص ٧ للحصرى

(٣) هو الكاتب الفكه جيروم ه م ، كان يسمى نفسه بالمفكر البليد ، وله كتاب سماه الافكار البليدة . . .

بضعف ذاكرته حتى بلغ به أنه كان ينسى اسمه فى بعض الأحيان ، فأذكرنى ذلك بما كان من أمر الجاحظ إذ قال : نسيت كنيتى ثلاثة أيام ، فسألت أهلى بماذا أكنى فقالوا لى : أبو عثمان ! !

ولقد كان الجاحظ فى كثير من قبح الشكل ، ودمامة الخلقه ، وقصر القامة ، ونشوز التركيب . ولكنه كان على الرغم من ذلك كله طيب المحضر ، شهى الحديث ، خفيف الروح . ظريفاً فى إشاراته ، فكان بذلك ريحانة السامر ، وأنس النادى ، ومهوى الرؤساء وولاة الأمر ، يطلبونه لخفته ، ويحرصون عليه اظرفه ، ويغمرونه لذلك المرح الذى يفيضه عليهم . وأسوق اليك من ذلك طرفا : حدث الرواة أن الجاحظ كان فى جانب الوزير ابن الزيات ينصره على القاضى ابن أبى دؤاد ، وقد كان الشنآن مستحكما بين الرجلين ، فلما غضب المتوكل على ابن الزيات وقتله ، وتم الظفر للقاضى ، خاف الجاحظ على نفسه التلف ، فطلب السلامة بالهرب ، فلم يلبث أن قبض عليه ، وحمل إلى ابن أبى دؤاد مغلول العنق ، مقيد الرجلين ، فى قميص سمل . فلما وقف بين يديه . أرسل القاضى فى طلب حداد . فقال الجاحظ أعز الله القاضى ، ليفكنى أو ليزيدنى ؟ قال : بل ليفكك عنك ! فلما جيء بالحداد ، غمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساقه ، ويطيل أمره قليلا ، فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فان الضرر على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجة . فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه . وقال ابن أبى دؤاد لمحمد ابن منصور وكان حاضراً : أنا أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه ! ! ثم قال يا غلام صر به إلى الحمام ، وأمط عنه الأذى ، فنزع منه الغل والقيد وأدخل الحمام وقد حمل اليه تخت من ثياب وطويلة وخف ، ثم جاء فصدره المجلس ، ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان (١) .

وكم كنا نشتهى أن يصلنا ذلك الحديث الذى لا نشك فى أنه كان عذباً شهياً يفيض بألوان من المرح ، وفنون من الأنس ، قد توثب فيه الجاحظ على طريقته من نادرة إلى نادرة . وتنقل به من طرفة إلى طرفة . فياترى ما ذا قال أبو عثمان ، وبماذا أجاب ابن أبى دؤاد ، ولماذا سكت الرواة ؟ !

« له بقية »

محمد فهمى عبد اللطيف

(١) اعتمدنا على معجم الادباء فى تلك الرواية وقد حذفنا مالا يتصل بمقام الكلام

صـــدر العدد الثانى من مجلة

الرواية

وهى مجلة للقصص العالى والسمر الرفيع تصدرها ادارة الرسالة فى ٧٦ صفحة

هى تعتمد فى الغالب على نقل ماراع وخلد من بدائع الأدب الغربى فى القصص على أوسع معانيه من الأقاصيص والروايات والرحلات والمذكرات والاعترافات والسير . وسيكون دستورها : الجمال فى الأسلوب ، والحسن فى الاختيار ، والنبل فى الغرض ؛ فترضى الذوق كما ترضى الرسالة العقل ، وترفع القصة كما ترفع الرسالة المقالة ، وتسجل أدب الغرب كما تسجل الرسالة أدب العرب

كتاب العربية		كتاب المصرية	
جان جاك روسو	فرنسيس دوير	درينى خشبة	توفيق الحكيم
جى دى موباسان	ديكنز	فليكس فارس	ابراهيم عبدالقادر المازنى
الفريد دى موسيه	بلاسكو ابانيز	الدكتور حسن صادق	احمد حسن الزيات
لويجى بيرانديللو	هوميروس	الدكتور محمد الرافعى	محمود الخفيف
أدجار ألن بو			عبد الرحمن صدقى

اشتراكها السنوى المؤقت ثلاثون قرشا فى مصر والسودان وخمسون قرشا فى الخارج